

تعليم النساء

وترجمة عليّة بنت المهدي العباسي

تمهيد

كان الخلفاء والامراء وحاشية القاموس في صدر الاسلام - حتى القرن الخامس للهجرة - من احرص الناس على تهذيب بناتهم وجواربهم وامهات اولادهم يتفقون الاموال ويحفظون النفوس السنين الطوال في تثقيف عقولهم وتقوية فطرتهم بالترويض والتخريج والتدريس والتحصيل على ايدي ثقات اهل العلم وائمة النخلة والرواة واشهر الحفظة والمجودين فامتنع بعد ان يحرص على العفاف وحسب الفضيحة من لا تحفظ القرآن العزيز وضرورة من احكام الفقه والحديث وتتفهم في الاسباب والتاريخ فضلاً عن آداب اللغة واختار السامع من شعراء ومحدثين وعزاة وخطباء وكتبة وامراء فكان صدر كل فئة من فئاتهم كزراً من اسمى الكواكب يصيب منه سميرها ماشاء من ادب وحكمة ونكتة وفكاهة فيحذب لما فوائده وينزع اليها عواطفه وتعلق من نفسه محل الحرمه والحق والاعظام بمقدار ما يتوسمه فيها من محاسن المداينة والتعقل وآثار النجابة والاعتبار.

وما في ذلك من عجب بل العجب من القبح وهيئات ان يحكى على امثال المنصور والمهدي والرهيد والامير ان الحسن المجدي معاً كان يارحمهم راحماً ياهراً فتانياً اذا لم يقترب الحسن المجدي ويشمع بالظرف الادبي كانت صاحبه كالتحليل للنجوت والصورة الملوثة في اقل قيمة راحمة مجادية فيها لان التمثيل والصورة معدودان من المبادئ التي يتوقع منها الاسلام رفعة الحركة والطلب الاشارة وخلق الروح وحلاوة المعنى وصحة المداينة وحسن الرواية ولذلك يستحسن ديروفاً باعين الناظرين بمقدار ما اودع فيها من دقة الصناعة وباسباب الرسم وحسن التكوين وتشاكل الالوان بمعدل عن تلك المزايا.

اما الفتاة ذات الجسم المتحرك والنفس الحية والافكار الناطقة والخلق السوي المتينة ان تكون زوجاً موانة وأماً مربية فتأملها النفس وبهاها الذوق ويدصرف عنها القلب وان كانت جميلة ومسيمة مادامت جامدة كالصنم بكاء كالجمجمة لا تنطق من احوال

الدنيا واسرار الحياة وحقائق الكون وماهية ما يراد منها ومقروض عليها من سنن وواجب
 الا ما كان مداره المتعلم والشرب وقوامه اللبس والركب ومرجعه الفهم والنصف
 وتبجته الحب والعمل فلذا عرض لها امر يستوجب الالتئام - وهو مما يحدث بكل
 يوم - فصرت في الاداء وتلكات في الكلام وسملت وتذعنحت وتماجت بملاآت
 ولم تنو على الافهام وان سملت عن شيء اجابت بلا ادري او هذرت بجواب لم يكن من
 حجة الدواعي ولا من مداه . فن كانت على هذا الطرز - وما عدد اشغالنا عندنا
 بقليل - احريها ان تكون عند اذكاء الرجال وارباب الدوق والتفصيل سافطة المرحلة
 حافة القدر رخيصة القيمة تفصلها الشخوص وتقتار عنها الصور لان هذه تمنع الاعين
 بحملها ولا قصر النفوس لما تلك فلها ثورث الكرافة وتني بالاضجر وقيل للنازل خاصة
 واجتمع القومي عامة باداء من المعلوم والمويقات تذهب بالانتم الى الغنى المركات
 اجل وليس من ينكر ذلك لقرانها يادي الامر فتخسب النقاء بشرنها وسواد حدفنها
 واعتدال قولها وعضاضة جسدنا وبضاخته وجدله والتفاهة ثم تسبح كلامها الدال على
 جهلها وغاوتها المؤذن قصر ادارتها وسذاجة قلبها وظلام ذاكرتها قدر درجتها وتبجتها
 وينبذها قلبك نبذ النواة وي طرحها ذكرك طرح القذرة لانها لا تصلح لعموءة
 وترويح العموء ولا ترجى للاستشارة وتسد يد الرأي ولا تنفع للامومة باتم معانيها
 وللثرية وتدير للنازل بكل ما يراد من هذين الواجبين بحكم العقل والصواب ومن كان
 هذا شأنها كانت سحطا على النوع الانساني ونيرا ثنيلا على عائق الوجود وكل امة
 تقلص ظل بجدها وخسب معين رغلها وزدت مواد فواما وتقطع اسباب منعها وعونها
 وهشها فلما اساء ما على تلك الشاكلة ولقد صدق من قال « ان اتي تهز السرير يمينها
 تهز العالم يسراها »

فيا حبذا لو اقتدى كبرآؤا واساطيننا من اساطين الامة وسراة اعلامها
 وصرفوا العناية الى تعليم اولئك اللواتي لا يسمين بحق اوانس الا اذا كن بالفعل زمة
 الجالس ولا يقال لمن عقائل مالم يكن بالحقيقة ارباب علم وادب وتهذيب وفضائل فلن
 اسلم على دين ملوكهم والامة تقتدي به بالعباد فلن احسن هو لا الابتداء احسن
 انقوم الابتداء والكس يمكن منه الله في الخلق منذ حلت الحضارة محل البداءة وقام
 التهذيب مقام الفطرة واصبح البشر درجات ومراتب وطبقات
 نقول هذا لوطنة يبدأ ما تذكره الآن من ترجمة اربعة عطفة واغت ثلاثة عطفة وعمه

ثلاثة وهي: «عليه بنت المهدي» التي عني قومه بجعلها وتأديتها وتربيتها وتوسيع دائرة اعتبارها حتى صارت آية الفضل وراحة الأدب ومثال العفاف وعنوان الرقة والبلاغة في قرص شعر الصحيح الأجزاء اثنين التركيب الرقيق المعاني تنقش في أصاليه وتأخذ بأطرافه أخذاً بهر العقول ويقفن الالباب على كيوها نشأة رهو وترق وغرسة صفوه لهم . ومعلم ان الملكة الشعرية لانتسحك في فتاة الى هذا الحد الا بعفلا لاعتان والحد واحياء الباطني الطوال تبحراً سيح علوم العرب واتقانا لقرون الادب وتعمقاً في دراسة الشعراء الناجين المجهدين من لحول المعاملة والمضمرين والمولدين والآن نأتمنياً لما ان نحدو حدوه ونسبح على متوالم وما تملكه الوحيدة بين انسابها في ذلك العصر الزاهر وما بعده بل يوجد كثيرات مثلها حتى بين الجوارس القيان فضلاً عن حرائر الآفات الحسان

* * *

ولدت عليّة حفيدة النصور - ثاني خلفاء العباسيين - وبنت المهدي واخت موسى الحادي وابراهيم بن المهدي والرشيد هارون والعباسة واسماء وعمّة الامين والمأمون والمنعم وصالح من سريّة أم ولد تدعى مكنونة حارية الرواية "وذلك في سنة ١٦٠ هـ" للهجرة وادركتها الزهرة نحو سنة ٢١٠ هـ وقد بلغت الحسين على اثر حى اصابتها وقد قال بعض المؤرخين في سب وفاتها ان الحبيب المأمون سمها اليه ماويلاً وجعل يقل رأسها وانتاب مسدول على وجهها فقصت ريقها لشدة ما تملكها من حبس انفاسها ثم انزلت وصعدت فكان في ذلك حشفاً

قال ابو اسحق الفريدي في كتابه «زهر الآداب» كانت عليّة الطيفة المعنى رقيقة الشعر حسنة بخاري الكلام رحيمة الصوت ولها الخان حسان احصاها ابو الفرج الاصبهاني في كتابه ما ذا هي ثلاثة وسبعون وكلها حسن معتل

(١) هي ابنة المهدي واخت موسى الحادي وهرون الرشيد وابراهيم وعمّة الامين والمأمون والمنعم وكل هؤلاء كانوا خلفاء

(٢) كانت مكنونة هذه حارية بالديرة وجمها واشترت لمهدي في حياة ابيه بئنة الف درهم فاستلّت على قلبه وتظلت على امره حتى كانت زوجته الخيزران تقول «ما بنت المهدي امرأة اكمل علي منها» وما زال خبر شرائها منحوماً عن ابيه المنصور حتى مات فبطلت له بئنة هذه وبقيت الى ما بعد وفاة الرشيد

وقال التوفلي عليها بها من اوجع النساء وجعا واعقدن قلوبكم وانظرن كلاما يقول
الشعر المتن الحيد ونصوح الاخلاق المسته وكان لي حبيها اتر من شجرة اوقضت سعة
يذوق من محاسنها فانقضت العصاب المتكاثرة بالجوهر نستر ذلك العيب فكان العادته
غير ما ابتدته النساء وقد وهم من قال ان احتيا العارضة المبدعة تلك العصاب فان
ذلك لم يشبه احد من ثقات المزارعين

وقال ابراهيم بن اسحاق الكلابي كانت عليه حصة الدين لا تعني ولا تشرب الا
اذا كانت معتزلة الصلوة فاذا طهرت اقبلت في الصلوة وثلاثة الازواد ومطالعة الكتب
- الا ان يدعوها الى شئ الا تقدر على خلافه - واغرب شئ ليها قول الشعر
وكان احد اجداد الفضل بن الربيع وزير الرشيد يقول ما جتمع في الاسلام الخ
واخت احسن عددا من ابراهيم بن الهندي وابنته عذبة وكانت اخته تقدر عليه
حدث يرمي ابراهيم بن الرشيد فقال : دخل بيتي بنى الاباء المأمون الى دار الحرم
ودخلت معه فجمعت عذبة اذعل عني فلم اقدر ان انتقم ولا انصر فقلت للاموي
لأبي فقصك ثم قال : عذبة عمنك عليه فطرح عمنك ابراهيم

مالي اري الابصار في حاليه لم تلقني متى الى حاجيه

لا تظن الناس الى البيت واما الناس مع العافية

وقد جفاني ظلك مبدية لأدومي مطلة وابية

والشعر والغناء لها ومن شعرها في لعيب الرشيد وقد دنته الى وبيته التي دعوتها

تفديك الخنك قد حيوت بغيرنا لست بعد لها الزمان عدلا

الا لظنك وذاك فربك سيدي لازال فربك والبقاء ملو بلا

وحمدت ربي في اجابة دعوتي فرايت حمدي عند ذلك قليلا

قال الرازي دامت له : عازارها الرشيد قال لها : عيني يا حني « فقلت » وحياك

لا تملني فليك شعرا ولا صوغ فيك لحننا ولا نسمعك به نساء يسارب الكحل ويرقص

القمع ويضحى اللذيق ثم نكت من وقتها الثلاثة آيات التي ذكرتها وعنت بها في

الحج جديد من خفيف الرمل فاطرب الرشيد كشيء واستعادها اياه مرثية ولما فيه

ايضا وقد دعا احتيا العارضة الى زيارته ولم يدعها

عالي نيت وقد لم دي وسمي وكنت والذكر عندي وانح ناد

بنا اني لا اطيعي الدمع فرفنكم فرق لي يا حني من طول العادي

ولما في ابن أخيها الأمين وكانت لأمات الرشيد حُرعت عليه حُرقة شديدة وترك
الهيول والفتنة فلم يزل بها الأمين حتى ماتت وأما كارهة فماتت

أطاعت ما دلتني لومي وتغلبت عليّ وأنت طاعة شوقي وتسيدي
لا تشرب الخمر بين السمات ودر طيباً عرياً في الحسد والحسد
قد ربحته شمول فهو معذال يحكي بوجسته ماء العائيد
فام الأمين فاعني الناس كلهم لها فقير على حال بوجود
ولما في «لينة» ابنة أخي علي بن المهدي وكانت من حلفاء زمانها الفاضلات
وحدثني عن مجلس كنت زينة رسول أمين والنساء شهود
فلما ذكر الخطيب الدعي مفي وذكر ك من بين المحدث أريد
وليس شمرها هذا فهي في جانب غزلياتها فإن لها من المتألمين في «طل» و«رشا»
ومما من حاليك الرشيد ما يكاد يبلى حلاوة وبقطر طرقة ويشرب سلامة
ومما قولها في «رشا» وقد كانت عنه يزنب

وحد العود يزيباً وجداً شديداً متعباً

اصبحت من كئيبي بها صبا كنيها مصعباً

وأند كنيك عن اسمها عذراً لكي لا تنفها

وحملت أريب سترة وكشمت امرأ عجيباً

فالت وقد عر الوصفا لي ولم اجد لي مذعباً

واقف لا تلت المودة أو تلت الكوكبا

فلما انتهرتها فكفي عن «رشا» يزيب قالت وقد صغفت يزيب بالفتنة «رب»

القلب مشتاق الى رب ياربنا هذا من العجب

قد ليت قلبي لم استطع الا البكا بانظم العجب

حيات في شعري اسم الذي ارته كالعجب وفي الحبيب

وكان الزبدة زوجة الرشيد جارية اسمها «طهران» وست بها مرة الى الرشيد

فلما غلبت نهجوماً وفيه مع ادب الكتابة اشد انواع الدم وهو من مبتكراتها المأثورة

«طهران» حلفت منذ ثلاثين سنة حديد فلا يلى ولا يتقوى

وكيف لي حلف هو الدهر كله على قدميها في الهواة مطلق

فما حلفت لعل ولا يلى جوراً وأمساً (ياب فوقه) فتقوى

ولما مات «رشا» أو قتل شئت سيء «قل» فقالت وقد صححت اسمه في البيت

الاول ليلجأ

أما سرودة البنات خلال تنوفي

مق يلقى من ليس بهوى حروجه

عسى الله أن يرحم من كرهه لما

فيلق اعراضه خطه وخطبه

وقام به ابتداء وقد سمعت التصحيح في البيت الثالث

علم على ذلك الغزال

بأنه عليه وعلى له

خلعت جنبي ضاحياً

وبلغت مني غابة

لم ادرك فيها ما عياله

ثم صرحت به في آيات آخر نسخة

وهو من ارق التشبيب

يا رب إلى قدر عرضت يجرها

مولاة سود تستهين بعددنا

فليل ولكي حرمت تعبه

يا رب ان كانت حياتي هكذا

والذي ادبها ونعزها وظلمها فكون الشعر انما هو محمور ابو حفص الشطر عجي وقد

شأ عدا في دار ابينا المهدي مع اولادهم اليه ثم قطع بعد موت المهدي الى غيبة هذه

ولما روت موسى بن عيسى العامري خرج معها الى دار زوجها وصادت الى القصر فوث

روحها نادى بها واسمى شاعرهم وهو القائل من نسائها لما غضب عليها الرشيد

لو كان يمنع حسن العقل ضاحية

كانت غيلة اراقى الناس كلمه

بالحب الشبي رجووه ونعزمه

فكانت آياته هذه سبب ومضى الرشيد

بها والى الله عليها ومن احسن القول وارفعها

قولها

يا عدائي قد كنت قبله عادلا

الحب اول ما يكون مجافا

حق اخطت فصرت مينا داملا

لذا تمكن صار شغلا شغلا

أرضي قبض فاني فتمعبوا برضى القنبل وليس برضى القنابل
وكان الرشيد قد استغنى عن لائكم طلاء ولا تنسب له في شعرها ولا تسميه
تخلت له ثم يوماً بالبحرول إليها وإذا بها تقرأ في سورة البقرة وقد بلغت الآية « فان
لم يصيبها وابل فغل » وأرادت ان تقول « غل » فقلت « فغل » فالتفت اليها فالتفت اليها فالتفت اليها
الأمين « فصحك وقال لها « ولا كل هذا »

هكذا روى القيرواني وأما الأصمعي فقال انه عند ما سمع الرشيد منها ذلك وعدها
الغلام بمد ان قبل رأسها وقال لها « لست املكك هذا اليوم من شيء تريدته » وعندنا
ان الرواية الاولى ادنى الى الصحة على ما عهد من غير الرشيد وانقله وكيف لا
ومو الإسمي « اي العروال النفس وأنت روي عن لسان عمة انها قالت « لا غفر
الله لي فاحسنة ارتكبتها ولا أقول في شعري الا عيباً » وعجبت فالتفت اليها تقول « ما حرم الله
شيئاً الا وقد جعل فيها حل منه عوضاً وبأي شيء يخرج حريمه » والحكمة لم يكن حبها
للرجال مقصوراً على القبل والقال لما كثرت من شعرها من ذكرى الهجو والوحشة والشوق
فما لمحت بها في التشبيب والفرح الا كاد ينطق بعفها وأدبها بغير لسان ويعرب عن
زاعتها وتعودها كوضع ترجمان لان النار لا تلتصق عن فواد اخمدته الشهوات
بالملات جذوة الذات وما اعلى قولها تشكو وتتلثم وهو من مهلب الشعر

للم عذالي ولم الخ واشتقوا الشون من سقي

واذا ما قلت في الخ شك من اهواه في الي

ولو شئت ان تأتي على جميع ابيارها وتخطو ما تها وما ذكر الرواة من بدائعها ولكانها
لضاق بنا اللطم وأدرك القاري الملأ لم يربداً من الاقتصار على ما وردنا بصره
الرجال وتذكره لمن الغفل العزم ولم يقتن بالفضل من ربات الحجاب حاتم
هذا الفصل بينين « لعنة » لا يجتاز من الحكمة والمعبوة لم يكثر الزبارة واللييب نفيه
الاشارة

اني كشرت عليه في زيارته قبل والشيء بحلول اذا كثرا

وراني منه آلي لا ازال اري في طرفة قصر أعني اذا نظروا

سليم عخوري